



صدد بعد معلولا بعد يبرود...



صدد الغارقة في القدم :

هي قرية صغيرة يسكنها نحو سبعة آلاف نسمة شتاء وضعفهم صيفاً، حين يعود المقيمون في المدن السورية وفي بلاد الإغتراب لقضاء بعض الوقت بين ذويهم. تقع على حدود بادية الشام وعلى بعد ستين كيلومتراً جنوب حمص. وقد هجرها العديد من أهلها إذ أن يبابيها شبه جافة وأرضها قاحلة وغيومها قليلة الأمطار. يشهد على أصالتها تاريخها القديم فقد جاء ذكرها في التوراة مرتين (سفر العدد 8.34 وسفر حزقيال 47.15). حافظ سكان صدد المسيحيون على انتمائهم الى كنيستهم السريانية طوال العصور ولا يزالون يقيمون الصلوات بلغة المسيح كما يدرسون هذه اللغة مجاناً لكل من يرغب.

كتب المطران اسطفان الدويهي ان سريان صدد كانوا على علاقة وطيدة مع رهبان دير مار موسى الحبشي في النبك حيث ترهب العديد منهم، واحدى كنائس صدد تحتفظ بأيقونة ثمينة لهذا القديس. وبعد الأحداث الأليمة من خراب وتهجير في حمص القديمة، منذ نحو سنتين وبعد أن دُمّرت كنيسة العذراء السيدة أم الزنار، نُقل كرسي مطرانية السريان من حمص الى مدينة صدد وبقيت حتى يومنا هذا، ومن المعلوم أن هذه القرية كانت كرسيّاً أسقفياً في القرون الوسطى.

أشتهر من ابناء صدد الخوري برصوم هلال بخطه الجميل ومنمنماته الرائعة، وبعض المخطوطات الصديّة التي لا يزال بعضها محفوظ في أكبر متاحف اوربا، كما اشتهرت صدد بالاحتفاظ برفاة الشاعر الكبير ابو فراس الحمداني الى أن قرر العماد مصطفى طلاس نقل مدفن الشاعر المذكور الى مدينة حمص في التسعينات من القرن الماضي. واشتهر أيضاً من أبنائها الأستاذ المناضل جهاد موسى ضاحي والعالم الدكتور القس رياض جرجور. ومنها خرج العديد من المثقفين استقروا في المدن الكبرى كما أسسوا قرى جديدة منها قرية الحفر، فيروزة، زيدل، المشرفة، مسكنة، الفحيلة وكلها في ضواحي محافظة حمص، واكثرية سكان هذه القرى من السريان، لذا تحمل صدد وبكل فخر، لقب : " أم السريان".

تعتزّ صدد ب برج أثري يعود إلى العهد الروماني حيث وجدت رسوم صليبان بارزة على جدرانه وهو على شكل طوابق لمراقبة القوافل المارة من تدمر والقريتين إلى دمشق، وكنائس عدة، منها كنيسة عريقة باسم القديسين سركيس وباخوس.

حتى صباح 21.10.2013 كانت صدد المسالمة الوادعة تنعم بالأمن والاستقرار، بعيدة عن كل الأحداث الأليمة... وفجأة وجدت نفسها في وسط جوّ لم تألفه سابقاً إذ دخلت بعض العناصر المسلحة واحتلت عنوة عدداً من المواقع الرسمية والمرافق العامة وحصلت معارك ضارية في البلدة الآمنة راح ضحيتها العديد من الشهداء من الطرفين ومن الاهالي، ويقال، ما لا يصدق عن شعبنا، أن بعض شباب القرية لاقوا حتفهم ذبحاً... قلت " ما لا يصدق عن شعبنا " لأن السوري لا يذبح أخاه السوري إلا إذا كان فاقد العقل والضمير والدين... هل هناك دين يدعو اتباعه إلى القتل... وذبحاً؟...

مدينة صدد أعطت سوريا العميد المتقاعد الذي قارب الثمانين من عمره واسمه مطانوس قرياقوس قسيس ويحمل وسام بطل الجمهورية من حرب تشرين المجيدة... ولهذا الإسم الثلاثي دلالات متعددة وهي للمعلومات والتذكير :

مطانوس : هو اسم مؤسس حياة التأمل والتعب والتنسك في بلادنا المشرقية وانتقلت افكاره وتعاليمه الى بلاد الغرب. والسيرة الحلبيّة لابن هشام تذكر أن الرسول كان يشارك القس ورقة ابن نوفل وابن المغيرة في خلوات سنوية وانقطاع تام عن أهله في مكة للصلاة والتأمل والتعب في غار حراء حيث نزل عليه الوحي وسمع الملاك جبريل يقول له : إقرأ...

قرياقوس : إسم والد العميد، هو اسم عدد كبير من القديسين والصديّين في بلادنا المشرقية كما في البلاد الغربية.

قسيس : وهو اسم العائلة وأصله سرياني ويعني عاقل، حكيم، كبير و كاهن عند النصارى: وقد جاء في القرآن الكريم :

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (5.82)

معلولا الأيقونة الفريدة

معلولا **محلها** أي المكان المرتفع ذو الهواء العليل بالسريانية التي ما زال سكان معلولا من المسيحيين والمسلمين يتحدثون بها إضافة إلى العربية، كما في جبعاين وبخعة رغم إنقراض الوجود المسيحي في هاتين القريتين. تبعد هذه البلدة عن دمشق 50 كم شمالاً وترتفع عن سطح البحر حوالي 1500 متر وتقع في منتصف جبال القلمون. أما سكانها فتعدادهم لا يتجاوز الثلاثة آلاف في الشتاء وفي الصيف يتعدى السبعة آلاف بين مغترب وسائح وزائر. أغلبية سكان معلولا مسيحيون وعدد كبير منهم من المسلمين، وجميع أهل البلدة المسالمة، يعيشون بتقاهم واحترام متبادل ويشاركون بعضهم بعضاً الأفراح والأفراح منذ مئات السنين.

أهم معالم معلولا التاريخية كنائس بيزنطية وأضرحة منحوتة في الصخور وأديار عدة، أما الأوابد والأحجار الضخمة والكهوف والمغائر المحفورة في الصخر التي سكنها الإنسان القديم فتحكي قصة تاريخ آلاف السنين منذ العهد الآرامي الذي كانت فيه معلولا تتبع مملكة حمص الآرامية إلى العهد الروماني الذي حملت فيه اسم سليوكوبوليس إلى العهد البيزنطي. واكتسبت دوراً دينياً مهماً عندما أصبحت منذ القرن الرابع مركز أسقفية واستمرت حتى القرن السابع عشر.

دير مارت تقلا : تقلا هي ابنة أحد الأمراء السلوقيين وتلميذة القديس بولس، يقع الدير الذي يحمل اسمها في مكان بارز من القرية والكهف الصخري الذي عاشت فيه لا يزال ظاهراً حتى اليوم. وفي رحابه بني الدير وتحيط به القلالي أي غرف الانفراد المحفورة في الصخر التي كانت خلوات للنساك والرهبان الذين ينصرفون إلى الصلاة والتأمل والتقصيف والزهد.

دير مار سرقيس وباخوس بني في القرن الرابع الميلادي على أنقاض معبد وثني قديم وسمي باسم مار سرقيس وهو أحد الفرسان السوريين الذين قتلوا في عهد الملك مكسيماتوس عام 297 ولا يزال هذا الدير محتفظاً بطابعه التاريخي العريق كما أنه يحتوي على اوان كنسية ومخطوطات وايقونات ثمينة.

الممر الصخري – الفج : تمتاز معلولا بفجّ مارت تقلا وهو شقّ ضيق يصبح ممراً بين طرفي الجبل وفيه ساقية ماء، ويقسم القرية إلى شطرين وحسب الحكايات الشعبية، نشأ عجائباً لحماية القديسة تقلا الهاربة من حكم الموت. ومن بداية هذا الفج حتى أعلى الجبل يوجد غرف وخلوات محفورة بالصخر وعلى مستويات مختلفة.

تقع معلولا، أيقونة جبال القلمون، على بعد بضعة كيلومترات عن الطريق العام بين دمشق وحمص. دخلتها المعارضة المسلحة بعد اقتحام الحاجز الرئيسي بتفجير انتحاري يوم 4.9.2013 فصعق العالم لهذا الخبر وحبس أنفاسه منتظراً أخباراً أليمة كون معلولا الأثرية معروفة على المستوى العالمي، إذ أنها مذكورة على كل النشرات السياحية وعلى طريق السواح من دمشق إلى صيدنايا إلى مار موسى الحبشي في النبك إلى حمص إلى حماة ف حلب ف إيبلا ف مار سمعان...

اصوات عديدة، كصوت السيء الذكر بطرس الناسك، سُمعت في الصحافة الغربية، أصوات تدعو أوروبا لمساعدة المسيحيين بحجة أن الإسلام يضطهدهم، بينما الكل يعرف من يؤجج ولماذا يؤجج الخلاف الطائفي بين المسلم والمسيحي ومن يزكي النزاع في سوريا لهدم ما بناه سوية المسلمون والمسيحيون من حضارة دينية معتدلة... وأخذت أخبار معلولا المتناقضة حيزاً كبيراً في الإعلام العربي والغربي، وسيطرت على المدينة الأمانة حالة من الخوف والترقب. وازدادت الضغوط على المسيحيين كي يهجروا بلاد آبائهم وأجدادهم مكرهين، وبالفعل ارتفعت نسبة النزوح والهجرة... وكما حصل في أول الأحداث حين أخذت دول الجوار تنصب لنا خيم اللجوء، قبل أن تبدأ موجات اللجوء، وأصبحت اليوم صخور جزر اليونان تعرفنا كما ضفاف لامبدوزا صارت تتحسس قرب وصول أبنائنا...

ونحن نستمر في تقديم الهدية تلو الهدية للعدو اللئيم الذي خطط لتجهير المسيحيين من ديار آبائهم وأجدادهم وحرمان المشرق من "ملحه الحافظ" ... وهذا هو موضوع البحث القريب، على هذه الصفحات.

بعد صدد وبعد معلولا... لن أتكلم عن يبرود، أو حمص، أو حلب، أو الرقة...
لن أتكلم عن وادي النصارى وخوفي أن يصبح وادي الدموع...
لن أتكلم عن هذه المدن لأني بعيد عن هذه الأحداث والأخبار...
لن أتكلم عن هذه المآسي لأني لست خبيراً في الشؤون العسكرية...
لن أتكلم عن مجريات الأمور وتواترها الأليم لأني أفتقر الى الخبرة الصحفية... ولكني أقول لكافة الأطراف : دعوا هذه
البلدات وشأنها فهي ذات طابع خاص ولا يستفيد من دمارها سوى عدونا اللئيم الذي يسعى لتدميرنا وتهجيرنا.
إني ابن سوريا منذ كان التاريخ وسابقى سورياً حتى يوم القيامة لأني أعشقها وقلبي حزين عليها... لذا أصرخ من الأعماق

- لماذا لا نترك جدّاتنا وجدودنا ينعمون بما تبقى لهم من العمر؟...
- لماذا نحرم أمهاتنا من زوج أو ابن أو أخ ونحرمهنّ من بسمّة السعادة؟...
- لماذا نحرم أطفالنا من نعمة العيش بفرح وهناء في كنف الأب والأخ والأهل؟...
- لماذا نحرم أبناءنا من الهدوء والطمأنينة أيام تفتّحهم على الحياة وأيام دراستهم؟...
- لماذا لا نترك سوريا تتابع رسالتها ك مركز الأورثودوكسية ومدرسة الإسلام المعتدل في العالم؟...
- لماذا لا نعيد لوطننا سوريا أيام زمان، أيام كُنّا عائلة واحدة متضامنة، نفرح سوية ونحزن سوية؟...
- لماذا لا نجتمع كلنا على كلمة سواء ونغني " سوريا يا حبيبتى أعيدي لي كرامتي سوريا يا معشوقتي "
- تعالوا يا أحبتي ، يا أبناء عشيرتي، يا إخوتي السوريين، نعمل سوية كي تعود وتعمر سوريا نا ولجميع أبنائها...
لا فرق بين مسلم ومسيحي إلا بالتقوى ومحبة سوريا، لا فرق بين سني او شيعي او اورثودوكسي أو علوي أو
درزي أو كردي أو انجيلي أو اسماعيلي إلا بالتقوى ومحبة سوريا...
- تذكروا يا أحبتي ، وأبناء عشيرتي أن المسيحي فتح بوابة دمشق أمام القائد خالد ابن الوليد، فكان ردّ الجميل أن
استمر الإسلام السوري سموحاً، وسطياً ومعتدلاً مع كافة أبناء سوريا. وما محافظة الدولة على اللغة الأرامية،
لغة المسيح في معلولا والقرى المجاورة سوى البرهان الساطع على أن سوريا هي مدرسة الإسلام المعتدل :

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ

إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.¹

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا²

وَلْيُحْكَمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ³

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ⁴

وهذا حديث شريف رائع : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "

وقال أبو هريرة قال النبي : " انا اولى الناس بعيسى ابن مريم لانه لم يكن بيني وبينه نبي "

¹ Le Coran, Al-Ankabout 29/46 La Mecque

² Le Coran, Az-Zukhrof 43/63 La Mecque

³ Le Coran, Sourat Al-Ma'idat, 5/47 Médine

⁴ Le Coran, Sourat Al-Hujourat 49/13 Médine

حين أقرأ بتمعن هذه الآيات البيّنات ينتابني شعور روحاني عميق أني خاشع راكم في رحاب كنيستي أسمع صوت الكاهن يجودها، ثم أرهف السمع فيصلني من المسجد المجاور صدى يردّد الحديث الشريف للنبي الكريم :

" لا فرق بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى "

حينئذ ترى عيوني عظمة كتبنا السماوية التي تعلم أن الله يحاسب خلقه على تقواهم والتقوى تختصر كل التعاليم الدينية لذا أناشد أبناء سوريا الحبيبة : تعالوا ننسى الكابوس الطويل ونحقق حلم الملايين كي تعود "أرض سوريا لها روح " كما قال قبل نحو خمسين سنة المؤرخ والصحافي البريطاني ديزموند ستيوارت...

وأنا على يقين أن سر روح أرض سوريا تكمن في ابتسامة أم الشهيد، تلك الابتسامة الممزوجة باللوعة والفخر والعزة.

والسلام عليكم، يا إخوتي وأحبائي.

لوجانوه، في 1.11.2013

فؤاد عزيز قسيس